محاضرات في مقياس النقد النفساني للسنة الثالثة LMD : الرواية من منظور التحليل النفسي

تمهيد :

أصبح اليوم المحلل مساهما فعالا في توليد و توسيع امتدادات الخطاب الأدبي و خاصة إذا تعلق الأمر بجنس الرواية ، و بعبارات أخرى يقول جان بيلمان نويل ((إنّ القارئ الذي يسبح في النص لأجل الإصغاء إلى عمل لا شعوري ، عند ما يأخذ القلم ليتوجه إلى الجمهور ، عليه أن يكتشف في نفسه وسائل تسمح له بنقل هذا العمل إلى لا شعور قرائه)) [1] و هنا يبدو و أن الزاوية النفسية في مقاربة العمل الإبداعي أكثر من ضرورة كونها تثير أسئلة تحفز على التفكير في أسباب الكتابة ، و لتشق طريقها نحو نفسية القارئ في مساءلة نفسانية مفتوحة و منفتحة .

لعل المتتبع لروايات "عبد الكريم غلاب" يلاحظ بسهولة أهمية روايته الشهيرة (شروخ في المرايا) إذ تمثل ((نقلة نوعية إضافية متميزة في مسيرته الإبداعية ، لا باعتبارها تطرح رؤية جديدة في معالجة القضايا المعروضة فقط ، و إنما أيضا و أساسا لكونها تعتمد أسلوبا تعبيريا و تقنيا مغايرا بما اعتدناه من كتاباته الروائية الأولى ، حيث الحكاية متماسكة ، والسارد عالم بكل شيء ، و الرؤية خلفية ، و الوقفات الوضعية طويلة ، و التعاليق فوقية)) [2] . وهو تحول أراد من خلاله الروائي أن يهرب من شكلية بوفاء و يحقق استجابة ما يجب أن تكون عليه الرواية ،من أجل تبليغ الفكرة المعروضة ، وترجمته تلك الأحاسيس و المشاعر معتمدا أسلوبا مناسبا إذ يقول : ((أنا لا أرفض الأساليب الجديدة ، و الأشكال المبتكرة ، و كم أتوق إلى أن يبتكر كاتب عربي شكلا جديدا للرواية العربية ، و لكن أتوق إلى أن يكون الشكل المبتكر متفقا مع المضمون و معبرا عنه ، و محدثا إضافة جديدة لهذا المضمون ، ومعبرا حقا عن روعة المضمون ، و محققا للإبداع و الابتكار)) [3].

يشعر القارئ و المحلل معا أثناء مقاربته لهذه الرواية بنكهة مأساوية خاصة ، تشعرك بالضياع و الغرابة التي يعانيها البطل وسط سجن مدينته ، يكفينا هنا أن نستحضر تلك الذكريات الجامعية التي باتت الشعور المميز للبطل يقول :((كنا طلابا مراهقين نعانق و ندين ، نعانق الذين ترفعهم الشعارات

---

[1] حسن المودن: الرواية و التحليل النفسي قراءات من منظور التحليل النفسي، منشورات الاختلاف ، منشورات العربية للعلوم ناشرون. لبنان. دار الأمان، الرباط ط1 2009 ، ص08

[2] عبدالعالي بوطيب: مستويات دراسة النص الروائي مقاربة تطبيقية ، جامعة المولى إسماعيل كلية الدب و العلوم الإنسانية ، جامعة مكناس، المغرب 2000. ص 35

[3] عبدالكريم غلاب : تجربة ذاتية في كتابة الرواية ، ضمن كتاب الرواية العربية واقع و أفاق ، دار ابن رشد ، ط1 1981 ، ص347

الوطنية والنضالية و التقدمية العلمية فوق نافخونا .... ندين الذين تنزل بهم الرجعية و التخلفية تحت أقدامنا ، سألت زميلا بح صوته الجهوري وهو يهتف ، يرفع قبضته في وجوه الآخرين ، كما يرفع الآخرون قبضاتهم في وجهه ، انتظرت حتى عجز صوته عن الصراخ ، فسألت :

و ما التقدمية ؟ و ما الرجعية ؟

صعقني بنظرة غاضبة حاقدة ، لوي رأسه علي ، حمدت الله أن قبضته لم تنفجر في وجهي)) [1]

لم يقف البطل عند وصف تلك المشدات بين أقرانه ، بل راح يصف العالم بسوداوية تشاؤمية شعورية ((عالم تعلم فيه الناس أن يغتصبوا حريتهم ، وأن يدقوا باب حريتهم بأيديهم المضرجة بالدماء ،وهي مع ذلك حرية ، هذه التي يغتصبونها رغم القانون و فلسفته)) [2]

لم يلبث البطل أن يتنفس ليعيد نقل أحاسيسه عن واقع نتن من بدايتها لنهايتها ، يبحث عن منقذ ، أو نسمة هواء نقية صافية تنعشه و تنقذه من حياة القلق و الحيرة، بل الضياع الذي يعيشه غير أنه يتصادف بالمرارة و الرفض و التأزم كل مرة أينما حل و أينما ارتحل : ((أريد أن أصل إلى الكمال ، إلى التجلي ، إلى الحقيقة التي لم يصل إليها في دنيا الناس ، ضللت إليها الطريق : أريد أن أهتدي إلى السعادة التي لم أجدها و أنا أسير بدمي ، بعقلي ، بفكري ، بقراءتي في المدرسة ، في الكلية ، في المقهى في المكتبة في الشارع)) [3] .

لا غرابة أن البطل يحكي مأساة حقيقة نفسية بامتياز من خلال حواره مع بقية الشخصيات ، ليجد القارئ أو المحلل نفسه وجها لوجه مع ما تشعر به هذه الشخصيات الروائية التي تعد بدرجة أولى ناقلة لما يدور حولنا ، و تتخير كل ماهو تعرية لمظاهر الحياة اليومية ، شأنها في ذلك شأن ناقل الأخبار اليومية ؛لهذا يمكننا القول بأن رواية شروخ المرايا ل"عبد الكريم غلاب" قد تجاوزت مرحلة السارد السطحي إلى سارد عارف بتعرية المظاهر محاولا بعث حياة جديدة سلمية تموت فيها كل المصالح .

---

[1] عبد الكريم غلاب : شروخ في المرايا، دار توبقال للنشر ، ط1 ، 1994 ، ص 108

[2] شروخ في المرايا : ص 56 147

[3] شروخ في المرايا : نفس الصفحات

هل يمكن تطبيق التحليل النفسي على الرواية ؟

يتساءل حسن المودن عن هذه النقطة فيقول : ((كيف يقول النص ما يقوله الإنسان ؟ ما هي الأساليب و التقنيات السردية التي يستخدمها النص الأدبي و الروائي هنا بالأخص من أجل قراءة الإنسان في واقعه النفسي ؟ كيف تمارس الكتابة الأدبية ، و الروائية خاصة ، تحليلها النفسي للشخصيات)) [1] فعلا إنها الرغبة في إسماع كلام غير الكلام المألوف ، هنا كلام أخر موجود في الداخل ، يشير "المودن حسن"إلى أهمية التحليل النفسي للأدب و تحديدا الرواية و قد وقف شاكرا فرويد و جان بيلمان نويل تحديدا في كتابه الموسوم ب :"التحليل النفسي للأدب " و الذي صدر في طبعته الأولى باللغة الفرنسية سنة 1978 ،وقد صدرت ترجمة عربية أولى عن هذا الكتاب سنة 1997 عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر . وقد أكد "حسن المودن" باعتباره مترجما للكتاب بأن بيلمان نويل أقام أفكاره على ماسماه بالمماثلة وهي ((أن الأدب و التحليل النفسي يشتغلان بالطريقة نفسها، فهما يقرآن الإنسان في حياته اليومية و داخل قدره التاريخي ويسعيان إلى بلوغ حقائق بالحديث عن الانسان وهو يتحدث نفسيا)) [2] كثيرا ما اهتمت الدراسات النقدية بما تقوله الكتابة الأدبية و خاصة الرواية فقد تتعدد المواضع النفسية فيها ، و يمكن أن نجملها فيما يلي :

1- الكتابة و العنف:

يعتبر العنف من أهم الموضوعات في الأدب الانساني : قديمة و حديثة ولا شك أن هذه النصوص تعكس تجارب الأفراد و الجماعات و الشعوب. في هذا الإطار أردنا أن نقف عند نموذج يعتبر ((وثيقة تصف واقع الجوع و الجفاف و الحرب و العنف و القتل و الموت في شمال المغرب أواسط القرن العشرين ، و تدين واقع العنف و التهميش الذي عاشته فئات من المجتمع المغربي الحديث)) [3] ننصت لصوت العنف من خلال رواية "الخبز الحافي" للكاتب المغربي "محمد شكري" نموذجا لشرح هذه النقطة المركزية في التحليل النفسي .

رواية تكشف النقاب عن موضوع حساس ، وتلقي الضوء على الدور النفساني الذي تؤديه الكتابة ((يمكن القول بأن الخبز الحافي تنقل واقع العنف الفيزيقي و اللفظي و النفسي الذي يسكن فضاءات اجتماعية عديدة : العائلة ، الشارع ، السوق ، محل العمال ، دور الدعارة ...

---

[1] حسن المودن :الرواية والتحليل النصي قراءت من منظور التحليل النفسي. ص 10

[2] المرجع نفسه. ص 13

[3] حسن المودن: الرواية و التحليل النصي. ص 28

لقد فرض محمد شكري نفسه في المشهد الأدبي لأن "الخبر الحافي" تصف عالم مقترنا بالعنف و القسوة ، فالعنف يحتل مكانة واسعة في جريان الرواية ، إذ على طولها نلاحظ تطور العنف من الطفولة إلى المراهقة ، من الريف إلى طنجة ، من العائلة إلى الشارع)) [1]

-علامات العنف في الرواية :

تتجلى في قسوة الأب في تركيبته النفسية كما يبدو أن الطفل محمد بطل الرواية يعيش في وسط عائلي أقل ما يقال عنه أنه موحش عنيف منزل بغرفة واحدة ، أب متجبر ، يهيمن العنف على جميع زوايا البيت ((أبي يعود كل مساء خائبا ، نسكن في حجرة واحدة .. أن أبي وحش ... عندما يدخل لا حركة ، ولا كلمة إلا بإذنه .. يضرب أمي بدون سبب)) [2] ((يصفع و يصرخ مثل الحيوان)) [3] ((يسب العالم دائما ، و يجذف على الله أحيانا)) [4] ((أخذ يركلني و يلكمني ... رفعني في الهواء ، خبطني على الأرض ، ركلني حتى تعبت رجلاه و تبلل سروالي)) [5] لم يقف الأب عند ابنه البكر بل راح يمارس أكثر الأنواع عنفا على ابنه الصغير الذي لا يدرك شيئا ((أخي يبكي ، يتلوى ألما ، يبكي ... الخبز ... الوحش يمشي اليه ... الجنون في عينيه ... يلوي اللعين عنقه بعنف ، أخي يتلوى الدم يتدفق من فمه)) [6]

مارس فضاء العنف ممارسته النفسية بامتياز في تعجيل هروب محمد إلى الشارع الذي لا يرحم ، ليصبح ذات غير سوية ، شخصية سلبية يقول: ((أنا ازداد شراسة مع أمي أو مع أطفال الحي .. سأسرق كل من يستغلني حتى ولو كان أبي و أمي ، هكذا صوت أعد السرقة حلالا مع أولاد الحرام)) [7] سحب الشارع محمد سحبا قويا ، وبات علامة للهروب خوفا من أن يقتله والده مثل مقتل أخاه أخاه ، فاستوطن الشارع و أصبح ملاذه الوحيد التشرد و اللذة التي اكتشفها في دور الدعارة .

هكذا تحدثنا رواية " الخبز الكافي" كل يوم عن العنف و الألم، فعلا إننا أمام كتابة نفسية نستلذ التدمير ((ارتبطت بالكلام السوقي العنيف منفتحة على الجسد ، الجنس، الشذوذ، الاغتصاب ،العنف الأبوي ، عالم الطفولة و المراهقة ، عوالم المتشردين و اللصوص لغة الشارع و أصواته .فعلا كانت الرواية

---

[1] المرجع السابق. ص 29
[2] محمد شكري : الخبز الحافي ، دار نشر الفنك ، الدار البيضاء ، المغرب 2007 ،- ص8
[3] الخبز الحافي. ص 31
[4] الخبز الحافي. ص 08
[5] الخبز الحافي .ص 06
[6] الخبز الحافي. ص 08-09
[7] الخبز الحافي ..ص 22 – 28- 29

وجها آخر لها يجري في واقع الفقراء و المتشردين واقع الصعلكة و الدعارة و الخمر واقع يفرض نفسه .

2-الكتابة و الألم :

إنّ المقاربة النفسانية تتجلى في كونها تكشف تلك الأمراض و الجراحات ، بنية التعرف على العوامل النفسية في المحكي . ((يمكن للقول بأن الكاتب هو من يتألم و أغلب الدراسات النقدية النفسانية التي اهتمت بالكتاب و المبدعين كانت دراسات تسعى إلى الكشف عن أوجاع هؤلاء و ألامهم من خلال الكتابة)) [1]

يستند التحليل النفسي في تطبيقه على إثارة مجموعة من الأسئلة أهمها مواطن الألم ، قوته ،تأثيره في القارئ أو المحلل و قد اخترنا لهذا العنصر نموذجا رائدا في تجربة الألم ، رواية " لعبة النسيان " لمحمد برادة ، كاتب و أستاذ مغربي ، يتجذر المعنى النفسي للألم في أول ما قرأه من هذه الرواية ((منذ الآن لن أراها ، قلت في نفسي و هم يضعون جسمها الصغير المكفن داخل حفرة القبر و يهيلون عليها التراب)) [2] نستحضر في هذا المقطع السردي ، فقد الابن لأمه ، و أي فقد ! للأبد و بهذا الكلام يمكن أن يضع القارئ و المحلل معا نفسيهما و جها لوجه مع رواية الألم و الفقد ، و يمكن اعتبار هذه الرواية صرخة من إنسان يتألم يأخذنا في جو من الحزن و البكاء و يدعونا الى ممارسة لعبة النسيان والتناسي ، تحاشيا للمعاناة و الوجع تعتبر هذه الرواية ، كتابة لذلك الألم المترسب في *أعماق نفس الفاقد* وهي مشاعر تتحقق ، ليستعيد معها الفاقد أجمل الذكريات وهنا تظهر كتابة أخرى على أثر الأولى كتابة الحداد وهو ما يسميه فرويد ((المسلك الذي ستسلكه الرواية : لقد اختار الراوي أن يمارس عملا داخل النفس المتألمة لرفع ونسيان الألم والإحباط والاكتئاب ، وهذا العمل يسميه مؤسس التحليل النفسي س. فرويد ، عمل الحداد او السلوان Travail de deuil فبعد الفقدان ، تختار الذات المتألمة المبسطة الاشتغال على الحداد وانجاز عمل تقوم من خلاله الذات الراوية باستحضار كل الذكريات والأصوات واللغات التي تربطها بموضوع المفقود))[3] ، وهذا الاستحضار من سبيل إعادة تثبيت المفقود في داخلية الذات .

وتعود أهمية الكتابة الروائية في العصر الحديث إلى اعتبارها وسيلة تعبيرية يتجاوز بها الراوي آلام الفقد والغياب وقد ظهرت دراسات نقدية معاصرة تستعين بالمفهوم النفساني في العمل الأدبي وخاصة تلك الكتابة العمياء التي تسمع صوتها الذي يفعل الكتابة .

---

[1] حسن المودن : الرواية و التحليل النصي. ص 39

[2] محمد برادة : لعبة النسيان ، دار الأمان، الرباط ، المغرب ، 1987 ص 07

[3] حسن المودن : الرواية والتحليل النصي ، ص46

2-الكتابة عن المكبوت :

قال عبد الحي مودن في خطبة الوداع : ((كل شيء يتنفس لغات حتى في الصمت حتى في الموت يبقى أن نفكك أسرار اللغات ، أن ننحت الثقوب رويدا رويدا ، نتسلل منها إلى حيث تستقر النفوس هادئة مطمئنة حيث نتنفس أضغاث أحلام بدون كلام ،لا تنخدع بلغات اللسان والبصر ، هي أثار خادعة تظل بها الأرواح الهاربة خوفا من عيون الرقباء ، أعني لغات النفس النابضة بروح كنه الحياة ، فراشات وجلى ، حاذر وأنت تدنو نحوها في ظلمة السكينة ، ففي رمشة تختفي ، كما في ومضة تبدو كأنها قط لم تكن .))[1]

تشخص رواية **"خطبة الوادع "** خطورة الكبت الذي تعيشه الذات فتفقد معه المتعة واللذة في الحياة ،ويقاسي الفرد من خلالها العزلة والجهود والإحباط ، فالمفقود يوجد منفيا بمقتضى الواقع المعايش في الزمن الحاضر ، ويبدو أن وظيفة الكتابة هي من تفجر هذا المكبوت ، وهنا يتحدد المكبوت في قوى القول والإبداع كل هذا يتصل بالأوضاع الاجتماعية و النفسية التي يعيشها البطل **أحمد الغزاوي** في هذه الرواية ليطل علينا بالحديث نفسيا عن هذا المكبوت الذي لم يتوان لحظة في طرحه .

3-المحكي النفسي في الرواية :

صحيح أن الرواية على اختلاف أحجامها ولغاتها فإنها تدين بدرجة أولى لعالم نفساني بامتياز وقد وقفنا للبحث في هذا العالم والتنقيب عنه في **رواية " الحي اللاتيني "** للكاتب اللبناني **سهيل إدريس** فالجزء ((اللافت في الرواية أنها تقودنا إلى رحلة العالم النفساني للشخصية المحورية ، أو الأصح أن نقول إن الرواية قد سافرت بالشخصية من عالمها العائلي الأصلي (بيروت) إلى عالم جديد وغريب مختلف عن العالم الأول))[2] .

رواية تسرد يوميات فتى لبناني، غادر وطنه لبنان اتجاه فرنسا؛ وتحديدا باريس من أجل استكمال دراساته العليا والحصول على درجة الدكتوراه ، وما يهمنا هاهنا ، هو علاقة العالم الجديد بداخلية الشخصية المحورية في الرواية ونفسيته ، صراع نفسي بين الفتى اللبناني وحبيبته الفرنسية جانين ، يجد القارئ نفسه أمام صراع الشرق مع الغرب ، على طول الرواية ، وجاء في الرواية ((كان يريد أن يحيط نفسه بالكتب من كل جانب ، فلا يزهد في القراءة ، ولا يستطيع أن يخترق هذا النطاق الذي ضرب حوله ، ولكنه لم يكن بحاجة إلى هذا كله فما هو بخارج ولو فتحت الأبواب كلها ، لأنه لا يستطيع الخروج ، كان يعيش حينذاك داخل نفسه)) [3]

تمتلك رواية **" الحي اللاتيني "** قوة نفسية غير لفظية في كثير من الأحيان، فالقارئ يكتشف تلك الأنشطة النفسية ويستطيع تشخيص الأعماق النفسية التي تعج بها الرواية.

---

[1] عبد الحي مودن : خطبة الوداع ، منشورات مركز تواصل الثقافات ، الرباط ، 2003، ص 38

[2] حسن المودن : الرواية والتحليل النصي ، ص146

[3] سهيل ادريس : الحي اللاتيني ، دار الآداب ، بيروت ، ط 15 ، 2007 ، ص79

4-غربة الذات :

أرادا الكثير من الروائيين بعث هذه الذات المتألمة المتحسرة من مرقدها ، وقد سعى معظمهم إلى استحداث هذه النقطة في الكتابة الروائية ولعل أبرزهم **" الطيب صالح " في راوية " موسم الهجرة إلى الشمال "** حيث سلك فيها مسالك جمالية أسلوبية يهيمن عليها مصطلح ((الموسم والهجرة))[1] ، يقول فيها **الطيب صالح** :((العالم فجأة انقلب رأسا على عقب.....لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال، وأنا أحس بالمرارة والحقد، فبعد هؤلاء الضحايا جميعا، توج حياته بضحية أخرى))[2]

يتكلم الشخصية بصوت خافت لأنه يريد أن يفعل قرار الهجرة والبحث عن الذات التي سلبتها الحياة قيمتها وأبرز حقوقها .

وما نختم به هذه المحاضرة، القول الشائع بأن نفسية المبدع ترجمان حقيقي لما يدور حوله من أحداث ومظاهر، يتوقف كل مرة ليمرر خطابه الإبداعي ليجد القارئ نفسه مأخوذ داخل نص تتخلله الكثير من المشاعر الصادقة.

---

[1] الطيب صالح : موسم الهجرة إلى الشمال ، دار الجنوب للنشر ، سلسلة عيون المعاصرة ، 1979

[2] نفس المرجع ، ص 127-133.